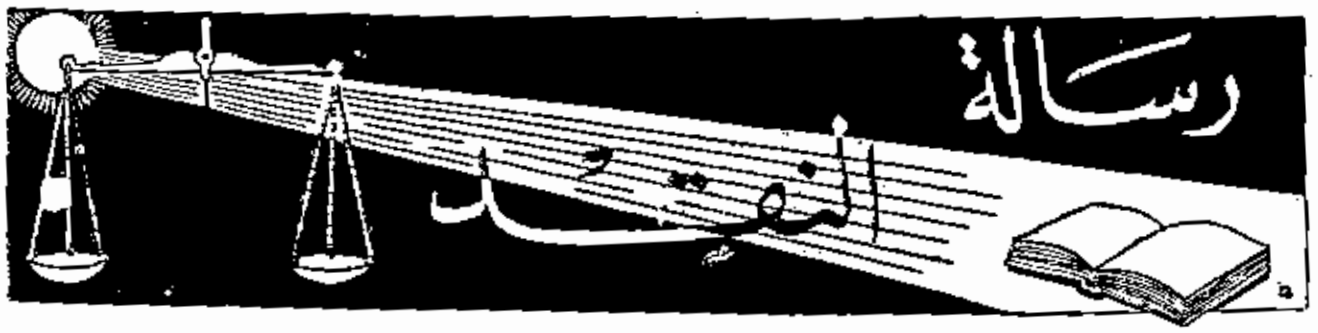

٥ـ في سبيل العربية

كتاب البخلاء

للأستاذ محمود مصطفى

كان يسعني أن أجعل موضوع حديثي اليوم ما أفضى به إليّ طالب بالسنة التوجيهية بإحدى مدارس وزارة المعارف بالقاهرة، فقد جلس الطالب إلى جانبي في بعض مراكب «الترام» وجعل يشكو إليّ (على غير علم بأني ناقد كتاب البخلاء) من أنه قد يعرض للطلبة توقف في فهم بعض أغراض الشارحين للكتاب فيبدو لهم أن يناقشوا أستاذهم في ذلك، فيوصد باب التفاهم معهم بقوله: إذا قال الجارم بك وجب الإذعان. وهكذا يميت الأستاذ في نفوس طلابه حب البحث ومعالجة الحقيقة بكلمة لعله يرجو أن تصل إلى صاحبها فتكون شفيعاً له. ولكن ما أدناها من شفاعة إذا كان الأستاذ يعلم صواب ما يريد طلابه مناقشته فيه فيحتجته عنهم ابتغاء مرضاة رئيسه.

ولكنا نعود إلى عملنا في نقد الكتاب راجين من حضرات المدرسين بالسنة التوجيهية، وهم الذين يدرسون للطلاب هذا الكتاب ويعدونهم للامتحان فيه بمناقشة معانيه وتوجيه مراميه راجين منهم أن يزنوا كلامنا حتى إذا آمنوا بصدقه عادوا إلى طلابهم فصححوا ما كانوا اعتقدوه مروياً به من سقطات الكتاب ليؤدوا بذلك أمانة العلم كاملة إلى طلاب لا لوم عليهم إذا قبلوا حقائق تقول وزارة المعارف إنها محضتها فارتضتها غذاء لعقولهم.

ص ٩١ يقول خالويه المكدي لابنه:

«ولست أرضاك وإن كنت فوق البنين، ولا أثق بك وإن كنت لاحقاً بالآباء، لأني لم أبالغ في محبتك»

هكذا أورد الشارحان كلمة «محبتك» وعلقا على الجملة بقولهما: (ولست أرضاك) أي لسري وثقتي. (وإن كنت فوق البنين) أي فوق أبنائي منزلة. (ولاحقا بالآباء) أي لأنك كبير السن. (لأني لم أبالغ في محبتك) لأني لم أجاوز الحد في تقدير محبتي إياك

وهذا التفسير خطأ في ذاته ينقض آخره أوله؛ إذ كيف يجعله أولاً فوق البنين ثم لا يكون مبالغاً في محبته! وهل فوق محبة البنين محبة؟!

كان يكفي هذا التناقض لعدول الشارحين عن شرحهما وبحثهما عن تصحيف أو تحريف لعله يكون قد وقع في الجملة، ولكنهما لم يفعلا وقبلا هذا التناقض في سطرين متواليين من شرحهما

والذي أراه أن كلمة «محبتك» مصحفة عن كلمة «محنتك»، والمحنة الاختبار. فيكون الذي منع الوالد من أن يجعل ابنه موضع سره ليس نقص محبته ولكن نقص تجربته له

أما كون الأب لم يجرب ابنه فذلك معقول، جائز خصوصاً إذا كان الأب نكدا ويه هذا قضى حياته موكلاً بفضاء الأرض يذرعه

وفي الصفحة عينها يقول خالويه هذا متحدثاً عن ماله: «ولم أحمد نفسي على جمعه كما حمدتها على حفظه لأن بعض هذا المال لم أنله بالحزم والكيس»

والمعنى في ذلك واضح، فهو يقول إن بعض هذا المال صار إليّ من غير تعب أو محاولة في جمعه، كأن صار إليه من هبة أو ميراث، فلا يكون له فضل في الحصول عليه. ولكن الشارحين يقولان في معنى الجملة الأخيرة: «لأني لم أسلك في جمع بعضه طريق الحكمة والحزم.

وهذه عبارة ناطقة بأنه سلك في جمع هذا البعض طريقاً غير طريق الحكمة والحزم

في ص ١٠٦ يصف الجاحظ رجلاً بأنه عضب اللسان عارف بالناقص من الأمور، فاهم للدقيق من المحاسن لا يسكت على عيب

فى الناس إلا نَدَّد به وشهّر ، ثم يقول عنه بعد ذلك :

« وإن ثريدته لبقاء إلا أن بياضها ناصع ، ولونها الآخر أصهب . ما رأيت ذلك مرة ولا مرتين »

فيقول الشارحان بعد أن فسرا البلقة بأنها بياض وسواد أو بياض وحمرة : ويظهر أن هذا التلون فى الثريدة يكون من قلة الدسم أو رداءة المرق وقلته ، حتى ليكون بعض الثريدة مشبعاً به وبعضها ليس كذلك . اهـ

والظاهرة العجيبة فى هذا الشرح أن الشارحين يذكران فيه شيئاً غير معقول لأحد، حتى لهما أنفسهما، ذلك أنهما ينسبان هذا التلون فى الثريدة إلى قلة الدسم ، فكيف يتصوران هذا ؟ لا شك أنهما فرضا هذا الدسم صبغاً كصبغ الخياط أو صبغ البيض فى شم النسيم ! حين ذاك تحقيقة تكون قلة الدسم كافية لأن يظهر بعض الثريدة بلون الخبز الأصلى وهو البياض ، وبعضها وهو الذى ناله الصبغ يكون من نصيبه تلك الصهبة ، كذلك تعليلهما هذا التلون بقلة المرق أو رداءته . وما ندرى كيف جاز هذا فى رأيهما ولم يقل به طاه ولا طاهية ؟

إنما الذى يصح أن يفهم من اختلاف لون الثريدة أن الرجل كان يقدمها إلى ضيفانه وقد كسى بعضها باللحم وترك جانب منها لا لحم عليه ، فظاهر هذا أبيض ناصع بلون الخبز ، وذلك أصهب بلون اللحم . ويكون ذلك عيباً كبيراً ومسبة شنيعة فى كرم الرجل لأنه لم يجر على عادة الناس من تغطية جميع الثريدة باللحم . فإذا كان قد زاد على ذلك أنه جعل ما يليه من الثريدة هو المغطى باللحم يكون قد ارتكب إلى جانب البخل رذيلة أخرى هى رذيلة الأثرة على من يجب تحرجهم الإيثار

ويؤنسك بهذا المعنى قول الجاحظ تلو هذا الكلام: « وكنت قد هممت قبل ذلك أن أعاتبه على الشيء يستأثر به ويختص به ... فلما رأيت البلقة هان على التحجيل والغرّة »

يريد أنه كان يرى من هذا الرجل استئثاراً بالشيء دون جلسائه ، ولكن ذلك يكون خفى الموضع ليس فى شناعة تميزه لنفسه على الخوان بجعل الثريدة التى يأكل منها على حال غير التى يجعلها أمام الناس من مضار مائدته ، فلما رأى منه ذلك لم يرو وجهاً لنصحه لأنه لا يقدم على هذا إلا معصرٌ غير مبالٍ بذم الناس ونقدهم

ص ١٠٩ يقول الجاحظ للحزامى وقد اتهمه بالإسراف وتضييع الحزم حين رآه يلبس من ملابس الشتاء قبل إبانه : « وأى شيء أنكرتَ منا منذ اليوم». فيعلق الشارحان على قوله « أنكرت » بقولهما : أى جحدت واستقبحت من أمرنا

وقد جمعا فى التفسير بين معنيين متضاربين فإن الجحود ادعاء جهل الشيء مع علمه وهو لا يلتقى مع الاستقباح ، إذ هو إعلان الرأى بقبح الشيء

والواقع أن الإنكار يفسر بالمعنيين ، ولكن ليس يلزم من هذا أن يفسر بهما معاً فى مقام واحد . فالمراد هنا هو المعنى الثانى فقط وهو الاستقباح ، فأما الجحود فلا محل له كما هو واضح من مقام الكلام

وقد وقع الشارحان فى هذه الغلطة نفسها فى ص ١٢٩ حين أورد الجاحظ وصف الجارود لطعام عبد الله بن أبى عثمان فقال : « يُعْرَفُ ويُنْكَر » . فقال الشارحان فى التعليق على ذلك : ينكر من الإنكار وهو الجحود والمراد يُحَبُّ ويُكْرَه . فجمعا فى التفسير اللغوى وبيان المراد بين المعنيين وهما الجحود والاستقباح لأن مقصودها من قولها « يُكْرَه » إنما هو أنه مستقبح . فبان من ذلك استماتة الشارحين للمعنيين معاً وجمعهما فى تفسير كلمة الإنكار حيث وجدت ، مع أنها إذا فسرت بأحدهما امتنع تفسيرها بالآخر فى نفس المقام . وهذا ظاهر

ص ١١٤ يحكى الجاحظ عن الحزامى :

« كان يقول : أشتهى اللحم قد تهرأ وأشتهى أيضاً الذى فيه بعض الصلابة

وقلت له مرة : ما أشبهك بالذى قال أشتهى لحم دجاجتين »

فيعلق الشارحان على قوله : « وقلت له مرة » بقولهما : أى لما قال أشتهى اللحم .. وكان مقتضى الظاهر أن يقول فقلت له. اهـ

يتعب الشارحان أنفسهما فى محاولة ربط الكلام بعضه ببعض ولكنهما فى سبيل ذلك يعدلان عن صواب إلى خطأ ويحملان اللفظ ما لا يحتمله من المعانى ، ويتقولان على القائل ما لم يقل ، أو يستظهران ما لا داعى إلى استظهاره . ومن ذلك قولهما هنا : كان مقتضى الظاهر أن يقول فقلت له (أى بدل وقلت)

وترى أنه لا داعى لهذا فإن عبارة الحزامى « أشتهى اللحم الذى قد تهرأ » كانت هجّيرا ، ومن لوازمه المأثورة عنه فقال له الجاحظ فى مرة من المرات التى كان يرددها فيها: ما أشبهك الخ .